الفصل الثامن

سؤال التوحيد للإسلاميين الحركيين

بعد هذه الإضاءات الموجزة عن معنى التوحيد، ومقتضاه، وعن مكانته في القرآن الكريم، يمكن للمرء أن يعود للجدال الموضوعي، بالتي هي أحسن، وبقصد البحث عن الحقيقة، مع الذين يقدمون السياسة على غيرها في الدعوة للإسلام، ومع الذين يجعلون استعادة الخلافة أولوية الإسلام والمسلمين، ومع الذين يثبطون الناس عن الحديث في التوحيد لأنه لا ضرورة له في عصرنا، بدعوى أن الأمر واضح ومسلم به من الجميع.

حديث إلى الحركيين عامة
وجمهور الإخوان المسلمين خاصة

أبدأ الحوار مع عموم الإسلاميين الحركيين، ومع جمهور مدرسة الإخوان المسلمين بوجه خاص، في ضوء ما كتبته عنهم في بداية هذه الرسالة. أستخدم عبارة "الإسلاميين" وأنا غير مرتاح لها، وغير مطمئن لصواب استخدامها في الحديث عن المسلمين، لأنها قد تكون بابا من أبواب تقسيم المسلمين وتقسيم مجتمعاتهم.

أقول: إن من يتأمل في القرآن الكريم يجد أن السياسة التي يفني بعض المؤمنين أعمارهم في دهاليزها ليست شيئا مهما جدا في القرآن الكريم. والتنظيمات الحزبية الحركية التي يتخذها بعض الناس وسائل لخدمة الإسلام ثم تكاد تصبح هي هدفا مستقلا بذاته، ليست شيئا مهما جدا في القرآن الكريم.

الله تعالى، الحكيم العليم، يرسل للناس في كتابه الكريم رسالة واضحة لا يمكن أن تخطئها عين العاقل المنصف أبداً. إنه يبين لخلقه في كل عصر وجيل أن أول ما يهمه في مسلك كل واحد منهم أن يؤمن به الإيمان الصحيح الخالص، وأن يعبده لا يشرك به شيئاً. ويقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(النساء: ٤٨). كما يقول أيضاً في السورة نفسها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١١٦).

ترتيب الأولويات

فإذا اتضح ذلك، كان على المسلمين كافة، وعلى العلماء وأهل السياسة والتنظيمات الحركية وقادة الرأي بشكل خاص أن يرتبوا أولوياتهم الترتيب الصحيح، وأن يطرحوا على أنفسهم سؤال التوحيد.

السؤال هو: هل ترضيهم حال الملايين من إخوانهم المسلمين الذين تملأ عقولهم وقلوبهم ونفوسهم رهبة الأضرحة وساكنيها، يقصدونها حبا وخوفا وطمعا، يطوفون بها ويتمسحون بحجرها وشبابيكها وزينتها،

يذبحون النذور عندها، ويأكلون من ترابها، ويدعون أصحابها يطلبون منهم جلب النفع وإبعاد الضرر. يقسم الواحد منهم بالله كذبا لا يخاف على نفسه، ويخاف أن يقسم كذبا بالولي صاحب القبر، ويظهر للقبور والمزارات والأضرحة من التعظيم ما تستنكف عنه النفوس الكريمة التي تحررت بعقيدة التوحيد من الأوهام والخرافات وكل ما يدخل في عدادها وما هو قريب منها؟

أكرر السؤال: هل ترضي هذه الأحوال والممارسات والأفكار عموم المسلمين وأهل السياسة والتنظيمات الحركية وقادة الرأي بشكل خاص؟

إذا كان الجواب على السؤال أن هذه الحال لا ترضي عموم المسلمين والعلماء وأهل السياسة والتنظيمات الحركية وقادة الرأي بشكل خاص، فماذا هم فاعلون؟ كم من الوقت يخصصونه لبيان التوحيد الخالص الذي يحرر البشر ويثبت كرامتهم؟ وكم من الجهد؟

معايير لاختبار مدى الجدية في الاهتمام بأمر التوحيد

إذا نظر قادة الحركات الإسلامية السياسية في نشاطهم السياسي والحركي والإعلامي طيلة السنوات القليلة الماضية، وحاولوا حصر الجهود التي بذلوها في خدمة ما جاء على لسان الأستاذ حسن البنا في الأصل الرابع عشر لجماعة الإخوان، عندما قال: "الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداؤهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير

الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ولا نتأول لهذه الأعمال "سدا للذريعة". فماذا يجدون في رصيدهم؟

هذه بعض المعايير التي تساعد على معرفة الحقيقة حول هذا الأمر المهم، نعبر عنها بصيغة السؤال:

١ ـ هل عقد قادة الحركات الإسلامية السياسية مؤتمرات علمية كبيرة يشار إليها بالبنان عن هذا الموضوع؟

بل إنني أعيد صياغة السؤال باحثا عن مطلب أقل: هل عقد هؤلاء القادة حتى مؤتمرات علمية صغيرة لا يشار إليها بالبنان حول هذا الموضوع؟

٢ ـ هل طلبوا من الأزهر الشريف، أو من أي مؤسسة دينية أخرى، إعطاء أولوية لهذا الموضوع؟

٣ ـ هل نظموا نشاطا دعويا تربويا قرب أشهر الأضرحة والمزارات لنصح زوارها وإخبارهم بأن " الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداؤهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ولا نتأول لهذه الأعمال "سدا للذريعة"؟

٤ ـ هل نشر زعماؤهم وكبار علمائهم ومنظريهم مقالات في الصحف عن أمر التوحيد وتصحيح العقيدة وتنقيتها من الشوائب؟ أو هل تحدثوا عن ذلك بتركيز وحماس في الفضائيات وفي الإذاعات عن هذا الموضوع؟

٥. هل ورد هذا الموضوع ضمن أي بند من بنود برامجهم الانتخابية؟

أترك الإجابة الدقيقة لأصحابها.

الإخوان محتاجون لمراجعة عاجلة لتعاملهم مع أمر التوحيد

قلت: أترك الإجابة عن الأسئلة السابقة للإسلاميين الحركيين بوجه خاص. وأضيف:إن الباحث الموضوعي يستطيع أن يقول بقدر كبير من الثقة إن الاهتمام بتجلية التوحيد الصافي الصحيح، وتنبيه الناس ودعوتهم للابتعاد عن المعتقدات والممارسات غير المنسجمة مع التوحيد الصافي الصحيح، ليس أولوية ظاهرة وقوية في برامج أكثر الجماعات الحركية الإسلامية وأنشطتها.

ولذلك فإن الأمر يحتاج لمراجعة عاجلة من الإسلاميين، خاصة وأنهم على المستوى النظري ملتزمون بما ذكره الأستاذ حسن البنا: "الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداؤهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة".

الرد على جواب افتراضي من الإسلاميين الحركيين

سيقول بعض الإسلاميين: التوحيد مستبطن في كل أعمالنا. نشاطنا السياسي والانتخابي والاجتماعي يصب في خدمة التوحيد. وجوابي أن هذا لا يكفي. إذا ركز الدعاة جهودهم على تصحيح العقيدة،

وزرع التوحيد الصافي الخالص في نفوس الناس، فإنهم يوافقون بذلك أولوية التوحيد في القرآن الكريم، وفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ويسلكون دربا يقود حتما لكل خير وفضيلة، لأن التوحيد أصل الاستقامة والموجه إليها.

أما إذا فعل الإسلاميون العكس، فليس مضمونا أن يؤدي فوز هذه الجماعة أو تلك بمقاعد نقابة المحامين أو بمئة مقعد في البرلمان إلى نشر الفهم الصافي الصحيح للتوحيد.

هذا مع العلم أن تركيز الدعاة على أولوية التوحيد لا يمنعهم من الدعوة إلى الخير في مجالات أخرى كثيرة سياسية واجتماعية وثقافية.

المهم إذن هو تصحيح الأولويات، لأن أعظم وأهم ما طلبه الله سبحانه من عباده أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا. ومن كان بوسعه أن يسهم في بيان هذا الأمر العظيم، بيان حق الله على العباد، فليبادر ويفعل ذلك دون تردد، فإنه بعمله هذا يضع يده على كنز عظيم وفضل عميم وعلى أصل الأصول القائد إلى كل خير.

وبقيت لي وقفة في الفصل الآتي -إن شاء الله- مع الذين لا يرون مشكلة دينية أو فكرية مع الاستعانة بالمقبورين وندائهم وطلب قضاء الحاجات منهم، ولا يرون في ذلك ما يتعارض من قريب أو من بعيد مع الفهم الصافي الصحيح للتوحيد.